الباب الثامن

في الجواب عمَّا احتجت به هذه الطائفة

قد تقدم في الباب الأول من ذكر الأدلة الدالة على وجود الجنة الآن ما فيه كفاية ، فنقول : ما تعنون بقولكم : إن الجنة لم تخلق بعد ، أتريدون أنها الآن عدم محض لم تدخل إلى الوجود بعدُ ، بل هي بمنزلة النفخ في الصُّور ، وقيام الناس من القبور ؟ فهذا قول باطل يرده المعلوم بالضرورة من الأحاديث الصريحة الصحيحة التي تقدم بعضها ، وسيأتي بعضها ، وهذا قول لم يقله أحد من السلف ، ولا أهل السنة ، وهو باطل قطعاً . أم تريدون أنها لم تخلق بكمالها ، وجميع ما أعدَّ الله فيها لأهلها ، وأنها لا يزال الله يحدث فيها شيئاً بعد شيء ، وإذا دخلها المؤمنون أحدث الله فيها عند دخولهم أموراً أُخر ، فهذا حقٌّ لا يمكن ردّه .

وأدلتكم هذه إنما دلّت على هذا القدر ، وحديث ابن مسعود الذي ذكرتموه ، وحديث أبي الزبير ، عن جابر : صريحان في أن أرضها مخلوقة ، وأن الذِّكْرَ يُنشىء الله سبحانه لقائله منه غراساً في تلك الأرض ، وكذا بناء البيوت فيها بالأعمال المذكورة ، والعبد كلما وسَّع في أعمال البرِّ وسَّع الله له في الجنة ، وكلّما عمل خيراً غُرِسَ له به هناك غِراس ، وبُني له بناء ، وأُنشىء له من عمله أنواع مما يتمتع به ، فهذا القدر لا يدل على أن الجنة لم تخلق بعد ، ولا يسوغ إطلاق ذلك .

وأما احتجاجكم بقوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيءٍ هَالِكٌ إلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص : ٨٨] . فإنما أتيتم من عدم فهمكم معنى الآية ، واحتجاجكم بها على عدم وجود الجنة والنار الآن نظير احتجاج إخوانكم بها على فنائهما ،

وخرابهما وموت أهلهما ، فلا أنتم وفقتم لفهم معناها ولا إخوانكم ، وإنما وفق لفهم معناها السلف ، وأئمة الإسلام ، ونحن نذكر بعض كلامهم في الآية .

قال البخاري في « صحيحه » : يقال ﴿ كُلُّ شَيءٍ هَالِكٌ إلاّ وجْهَهُ ﴾ : إلا ملكه ، ويقال : إلا ما أريد به وجهه .

وقال الإمام أحمد في رواية ابنه عبدالله : فأما السماء والأرض فقد زالتا ، لأن أهلهما صاروا إلى الجنة وإلى النار، وأما العرش فلا يبيد ولا يذهب، لأنه سقف الجنة ، والله سبحانه وتعالى ، عليه ، فلا يهلك ولا يبيد .

وأما قوله تعالى : ﴿ كلُّ شَيءٍ هالكٌ إلاَّ وَجْهَهُ ﴾ فذلك أن الله سبحانه وتعالى أنزل : ﴿ كُلُّ منْ عليها فانٍ ﴾ [الرحمن : ٢٩] ، فقالت الملائكة : هلك أهل الأرض ، فطمعوا في البقاء ، فأخبر الله تعالى عن أهل السماوات وأهل الأرض أنهم يموتون فقال : ﴿ كلُّ شيءٍ هالكٌ ﴾ ـ يعني : ميت ـ ﴿ إلا وَجْهَهُ ﴾ ، لأنه حيٌّ لا يموت ، فأيقنت الملائكة عند ذلك بالموت . انتهى كلامه .

وقال في رواية أبي العباس ، أحمد بن جعفر بن يعقوب الإصطخري ، ذكره أبو الحسين في كتاب « الطبقات» قال : قال أبو عبدالله أحمد بن حنبل : هذه مذاهب أهل العلم ، وأصحاب الأثر ، وأهل السنة المتمسكين بعروتها ، المعروفين بها ، المقتدى بهم فيها ، من لدن أصحاب نبينا ﷺ إلى يومنا هذا ، وأدركتُ من أدركتُ من علماء أهل الحجاز والشام وغيرهم عليها ، فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب، أو طعن فيها ، أو عاب قائلها ، فهو مخالف مبتدع خارج عن الجماعة ، زائل عن منهج السنة وسبيل الحقِّ .

وساق أقوالهم إلى أن قال : وقد خلقت الجنة وما فيها ، وخلقت النار وما فيها ، خلقهما الله عز وجل ، وخلق الخلق لهما ، وخلق كلَّ شيءٍ انخلق لهما ، ولا يفنيان ، ولا يفنى ما فيهما أبداً.

فإن احتج مبتدع ، أو زنديق بقول الله عز وجل : ﴿ كُلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهَهُ ﴾ [القصص : ٨٨] وبنحو هذا من متشابه القرآن ، قيل له : كلُّ شيء

ممَّا كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك ، والجنة والنار خلقتا للبقاء ، لا للفناء ولا للهلاك ، وهما من الآخرة لا من الدنيا ، والحور العين لا يمتن عند قيام الساعة ، ولا عند النفخة ، ولا أبداً ، لأن الله عز وجل خلقهن للبقاء ، لا للفناء ، ولم يكتب عليهن الموت .

فمن قال خلاف هذا فهو مبتدع ، وقد ضلّ عن سواء السبيل . وخلق سبع سماوات ، بعضها فوق بعض ، وسبع أرضين ، بعضها أسفل من بعض ، وبين الأرض العليا والسماء الدنيا مسيرة خمس مئة عام ، وبين كل سماء إلى سماء مسيرة خمس مئة عام ، والماء فوق السماء السابعه ، وعرش الرحمن عزَّ وجلَّ فوق الماء ، والله عزَّ وجلَّ على العرش ، والكرسي موضع قدميه ، وهو يعلم ما في السماوات والأرضين السبع ، وما بينهما ، وما تحت الثرى ، وما في قعر البحر ، ومنبت كل شعرة وشجرة ، وكل زرع وكل نبات ، وسقطة كلّ ورقة ، وعدد كل كلمة ، وعدد الرمل والحصا والتراب ، ومثاقيل الجبال ، وأعمال العباد ، وآثارهم وكلامهم وأنفاسهم ، ويعلم كل شيء لا يخفى عليه من ذلك شيء ، وهو على العرش فوق السماء السابعة ، ودونه حجب من نار ونور وظلمة ، وما هو أعلم بها ، فإن احتج مبتدع ومخالف بقول الله عز وجل : ﴿ ونحنُ أقربُ إليهِ من حَبلِ الوريدِ ﴾ [ق : ١٦] وقوله : ﴿ وهُوَ معكُمْ أينما كُنْتُمْ ﴾ [الحديد : ٤] وقوله : ﴿ إلا هو معهمْ أينما كانوا ﴾ [المجادلة : ٧] وقوله : ﴿ ما يكونُ مِنْ نَجوى ثلاثةٍ إلا هو رَابِعُهُمْ ، ولا خَمسةٍ إلا هو سَادِسُهُمْ ﴾ [المجادلة : ٧] ونحو هذا من متشابه القرآن فقل : إنما يعني بذلك العلم ، لأن الله عز وجل على العرش فوق السماء السابعة العليا ، يعلم ذلك كلّه ، وهو بائن من خلقه ، لا يخلو من علمه مكان .

وقال في رواية أبي جعفر الطائي محمد بن عوف بن سفيان الحمصي ، قال الخلالُ : ـ حافظ إمامٌ في زمانه ، معروف بالتقدم في العلم والمعرفة ـ كان أحمد بن حنبل يعرف له ذلك ويقبل منه ، ويسأله عن الرجال من أهل بلده .

قال : أملى عليّ أحمد بن حنبل ، فذكر رسالة في « السنة » ثم قال في أثنائها : وإن الجنة والنار مخلوقتان قد خلقتا كما جاء الخبر . قال النبي ﷺ :

« دخلت الجنة فرأيت فيها قصراً » ، و« رأيت الكوثر » ، و« اطَّلعتُ في النار فرأيت أكثرَ أهلِها كذا وكذا » فمن زعم أنهما لم يخلقا ؛ فهو مكذِّب برسول الله ﷺ وبالقرآن ، كافر بالجنة والنار ، يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل .

وقال: في رواية عبدوس بن مالك العطار ، وذكر رسالة في « السنة » قال فيها : والجنة والنار مخلوقتان ، قد خلقتا كما جاء عن رسول الله ﷺ : « اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها كذا وكذا ، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها كذا وكذا » .

فمن زعم أنهما لم تخلقا فهو مكذب بالقرآن ، وأحاديث رسول الله ﷺ ، ولا أحسبه يؤمن بالجنة والنار .

فتأمل هذه الأبواب وما تضمنته من النقول ، والمباحث ، والنكت والفوائد التي لا تظفر بها في غير هذا الكتاب البتة. ونحن اختصرنا الكلام في ذلك، ولو بسطناه لقام منه سفر ضخم، والله المستعان، وعليه التكلان، وهو الموفق للصواب.